الأدب المقارن
والأنتروبولوجيا الثقافية

بنجو روسيفPENJO RUSEV

ترجمة: *عبد القادر بوزيده*

حقق الأدب المقارن، باعتباره علما، نتائج كبيرة بين الحربين العالميتين؛ أمّا النتائج التي تحقّقت بعد الحرب العالمية الثانية فهي نتائج هائلة وشديدة العموميّة (..).

أما اليوم، فإن الإمكانيات العلميّة لهذا النمط من البحوث المقارنة قد أصبحت محدودة جدا، بل تكاد تستنفد. يؤكد هذا، من بين أشياء أخرى، الظاهرة التالية في ميدان الأدب المقارن: وهي" أنه لم يتم حتى الآن وضع مصطلحات محدّدة ومستقرّة بشكل كاف، تتناسب مع الوضع الحالي لعلم الأدب». فالمصطلحات الأساسيّة التي أدخلها بول فان تيغم: «المرسل»، «الوسيط» و«المتلقي» مصطلحات شديدة العموميّة وغير مقنعة بما فيه الكفاية، وهي لهذا قليلة الإستعمال. فعلى العموم، وفي أغلب الأحيان، تستعمل كلمات «الشهرة الأدبية» و «الإشتهار» و«المنابع» و«التأثير». والحاصل أنّه «رغم تنوّع العناوين والمضامين، فإن كل الأعمال التي تدرس الإنتشار والشهرة والتأثيرات والمنابع يمكن اختزالها إلى نموذج وحيد **س و ي**» وأنه لمن الواضح إذن أنّ «هذه الصيغة المسّطحة جدا لا تعبّر بصدق عن تعقّد ظاهرة العلاقات».

وتتميز الدراسات الأدبيّة المقارنة التي كتبت إلى الآن بسمة مشتركة: إنّها تدرس الأعمال الأدبية، والكتّاب والاداب والعمليات الأدبيّة انطلاقا من الأدب نفسه. وفضلا عن ذلك فإن الأدب ينظر إليه من جهة على أنه نتيجة، شيء مغلق وقائم بصفة نهائية؛

ومن جهة أخرى على أنّه عالم منفصل، قائم ومعزول في ذاته.والواقع أنّ الأدب المقارن كعلم يذكرّنا من بعض الوجوه بعلم الفلك سابقا حيث كان يسود الإعتقاد بأن الأرض هي المركز الثابت للكون.

ومن جهة أخرى، فإن مقارنين عديدين أصبحوا يدركون اليوم بأن الدراسة المقارنة للأدب يجب أن يعاد أساسا تنظيمها بمقتضى النتائج المعاصرة للعلوم الأساسيّة - الطبيعيّة والتقنيّة والإجتماعيّة. ويجب أن تنزع إعادة التنظيم هذه إلى التخلّي عن موقع العلم الأدبي الخالص الذي يعتبر الأدب نتيجة وعالما مغلقا في حد ذاته؛ وإلى دراسة الوقائع والظواهر الأدبيّة انطلاقا من العمليات الفنّية الخلاّقة عموما. وبعبارة أخرى، فإن إعادة التنظيم الضرورية تستتبع أن يرتكز الأدب المقارن على الأنتروبولوجيا الثقافيّة المعاصرة، التي هي ثمرة التطوّر المعاصر للعلوم وخاصة السبرنطيقا والنظرية العامة للإتصال.

أوّلا، إن الأنتروبولوجيا الثقافية الكلاسيكية ببحوثها الفعّالة حول الثقافات البدائيّة والقديمة تكتسي أهميّة بالنسبة للأدب المقارن. هذه الدراسات المقارنة معقّدة، تعاقبيّة وتزامنيّة، ترتبط في الوقت نفسه بالأتنوغرافيا، وما قبل التاريخ، وعلم الإجتماع، وعلم الآثار، وعلم النفس، واللسانيات. ولو لم تكن الثقافات القديمة والبدائيّة ذات طابع فولكلوري بحت، أي بلا كتابة و لاأدب، لأمكن أن نضيف إلى هذه القائمة علم الأدب.

كانت الأنتروبولوجيا الثقافيّة في السابق تدرس فقط الثقافات القديمة والتي هي أقلّ تعقيدا.ويرى «روس آشبي» (Ross Ashby) «أنّ العلم منذ قرنين كان يدرس نظما هي إمّا بسيطة في حد ذاتها أو قابلة لأن تحلّل إلى مكوّنات بسيطة». وكان السائد في العلم هو «دراسة (...) العوامل واحدا واحدا»، وهي طريقة، في جوهرها، لا يمكن أن «تطبّق» في دراسة النظم المعقّدة. أمّا اليوم، وبفضل «السبرنطيقا» التي تلقي الضوء على العلاقات المتبادلة والتداخلات بين النظم وكذلك داخل النظم نفسها، فإن العلم قد خطا خطوات حاسمة في دراسة «التعقيد» باعتباره «ظاهرة مستقلّة»؛ وبدأ يدرس بنجاح أيضا «التحوّلات» التي تؤثر فيها مئات وآلاف العوامل (...).

إن الأنتروبولوجيا الثقافية المعاصرة هي العلم المعقّد الذي يبحث في القوانين العامة وخصائص التطوّر الثقافي للإنسان والمجتمعات والجماعات البشرية منذ أقدم العصور

إلى يومنا هذا. وهو يرتكز على المكاسب التي حقّقتها سلسلة من العلوم الجديدة مثل السبرنطيقا، ونظرية الإعلام، والنظرية العامة للإتصال، وسيكولوجيّة النشاط الفنّي المبدع، وعلم السيمياء الخ. والهدف الأساسي لهذا العلم هو دراسة "آلية" الإتصال الثقافي التاريخي واستمراره وتطوّره. وبهذ المعنى، فإن الأنتروبولوجيا الثقافية قد ظهرت باعتبارها مجالا علميًا واسعا، يضم عددا كبيرا من العلوم الأساسيّة وغير الأساسية والمرتبطة ببعضها البعض، ومن بين هذه العلوم يوجد أيضا علم فن القول أي الأدب.

تنطلق الأنتروبولوجيا الثقافية، المشار إليها هنا، من الحقيقة التالية وهي أننا لم نكتشف حتى الآن مجتمعات إنسانيّة بدون لغة ولا شعر ولا فن ولا تعليم ولا ثقافة؛ وهذا بغض النظر عن مدى تطوّر هذه المجتمعات. إن المجتمعات هي ثمرة التطوّر الثقافي التاريخي وهي، من وجهة نظر السبرنطيقا، ذات بنية ووظيفة. لهذا، يجب أن ندرسها على مستويين: بنيوي وإعلامي - وظيفي. ويجب ألا نعارض أو نخلط بين المستويين، ولا أن نضفي على أحدهما بالأحرى صفة الاطلاق.

وثمثّل المجتمعات، من وجهة نظر السبرنطيقا، «نظما ديناميكية» كبيرة ومعقدة في «حالة توازن»، «ثابتة» (..). فهي تحافظ على «توازنها الداخلي» و «تنضبط من تلقاء نفسها» بواسطة نظم من وسائل الإتصال بين مختلف الأفراد (..). ولا يمكن تصوّر المجتمعات، من أصغرها الى أكبرها وأعقدها، دون نظام خاص من وسائل الإتصال الثقافي. هذا النظام يتمثل بالذات في اللغة، والشعر، والفن، والتعليم، وباختصار في الثقافة.

وتدرس الأنتروبولوجيا الثقافية المعاصرة. بقصد التعرف على المجتمعات وثقافتها، تدرس قبل كل شيء وسائل الآتصال الثقافي، أي «الترابطات (connexions) و «العلاقات» و «قنوات» التبليغ التي تتراكم فيها وتنتقل عبرها المعلومات الثقافية التاريخية للمجتمع.

يخضع تطوّر نظم الإتصال الثقافي للمراحل التي تمر بها عمليّة تحسّن قاعدتها اللغويّة. ويمكن بهذا الصدد أن نتحدث عن أربع مراحل: 1) لغة بشريّة منطوقة بلا كتابة؛ 2) لغة أدبية وأعمال أدبيّة مكتوبة؛ 3) لغة أدبيّة قومية وطباعة الكتب؛ 4) لغة أدبية

ووسائل إتصال جماهيرية. بناء على هذا، تكون نظم الإعلام والإتصال كالتالي: 1) بلا كتابة أو فولكلوريّة؛ 2) نظم أدب مكتوب؛ 3) نظم تعتمد على طباعة الكتب؛ 4) نظم علميّة تقنيّة. وتتطوّر الثقافات نفسها في نفس الخط: 1) فولكلوريّة وقبليّة عادة؛ 2) مكتوبة وذات طابع قومي أحيانا؛ 3) قوميّة؛ 4) علميّة وتقنيّة.

ويلعب فن القول الأدبي، خلال كل هذه المراحل، دورا من الدرجة الأولى في عمليّة الإتصال الثقافي. فالأدب والفنون الأخرى المرتبطة به هي التي تتراكم وتحفظ فيها المعلومات الثقافية التاريخية للمجتمع. إن الأدب يشكّل نواة الإتصال، لهذا فهو الذي يرسم الخطوط الأساسيّة للتطوّر الثقافي. والأدب، باعتباره «خط وصل وترابط»، قادر على أن يراكم وينشر، عبر المكان والزمان، معلومات ثقافية أساسيّة، هامّة من حيث حجمها، وشديدة التنوّع من حيث طبيعتها: دينيّة وإيديولوجيّة وفنّية وعلمية. إن الأعمال الأدبيّة المختلفة هي، من جهة، «خطوط وصل وترابط» وهي، من جهة أخرى، اتصالات ملموسة. فالأعمال الأدبية، باعتبارها تبليغا فنيا وغير فنّي، هي إنجاز حقّقته موهبة الفرد المبدع وجهوده؛ لكنها باعتبارها «خطوط وصل وترابط» - أي لغة فنيّة، وطرائق، ووسائل وشكلا - هي ثمرة صياغة جماعيّة، أي ثمرة للتقاليد.

وواجب علم الأدب في عصرنا أن يدرس الوقائع والظواهر الأدبية أوّلا باعتبارها عمليات إعلامية، وأن يدرسها بعد ذلك من الناحيتين اللتين أشرنا إليهما.

إن الدور الأساسي الذي يلعبه الأدب في عملية الإتصال الثقافي يضفي على العلم الذي يدرسه طابعا أساسيًا وجوهريًا. وإلى جانب ذلك، فهو يرتبط إرتباطا طبيعيًا ومتينا بالعلوم التي تدرس الفنون الأخرى وبالثقافة عموما. ومن جهة أخرى فإن الدراسات الأدبيّة لا يمكن لها، مستقبلا، أن تكون ذات طابَع أولّي، بسيط وغير مركّب، ولا أن تبقى دراسة أدبيّة محظة؛ بل ستتحوّل من دراسة مقارنة وتاريخية إلى دراسة معقّدة - إلى هذه الدرجة أو تلك - . وبما أن العمليّات الإعلاميّة موحّدة ولا يمكن تجزئتها، فإن أيّ دراسة أهمّ للأدب ستخصّ آليّة الإتصال الثقافي بأكملها.

إن الأنتروبولوجيا الثقافية المعاصرة تضفي على علم الأدب وعلوم الفنون الأخرى والثقافة عموما، تضفي عليها من جهة اتساعا وتعقيدا، وتوفّرلها من جهة أخرى طريقة عمليّة في التبليغ ذات طبيعة وظيفيّة.

وسأقدّم المثل التالي لتجسيد أهمّية هذا المكسب العلمي الكبير.

إن الأعمال الأدبيّة والفنيّة، باعتبارها عمليات اتصال ذات بنية فنيّة، تحتوي أيضا على معلومات حول "لغتها الفنيّة، أي حول المهارة الإبداعيّة التي وضعت فيها، حول خصائصها كإنجازات فنّية متميّزة. هذا النوع من التبليغ يكمن في أساس العملية التاريخية لتطوّر الأدب والفن.

«فالإطارات» الشابة التي ستظهر في المستقبل تتعلم المهارة الفنّية من خلال أعمال الذين سبقوها. لكن التعلّم، في هذه الحاله، ليس مجرّد استيعاب لمعارف، بل هو عملية متواصلة ومعقّدة من النموّ الفني والإبداعي.

فالمبدع الشاب: الشاعر أو الملحّن أو الرسّام أو الممثل، يتطوّر تطوّرا ايجابيّا وينمو بطريقة خلاّقة إذ يقوم بنشاط متزامن في ثلاثة إتجاهات: 1) ملاحظة ودراسة موضوع إبداعه وعموما العالم والحياة؛ 2) استيعاب أعمال أدباء آخرين؛ 3) أن يبدع هو نفسه بمراكمة وتحسين تجربته الخاصة. والمبدع الشاب يتلقّى ويصوغ ثلاثة أنواع من المعلومات: 1) بخصوص موضوع إبداعه؛ 2) بخصوص الوسائل والأشكال التي أعيد بواسطتها، من قبل، خلق هذا الموضوع في أعمال كتّاب آخرين؛ 3) بخصوص نتائج جهوده ومحاولاته الإبداعية الخاصة. على أثر كل هذا النشاط يصوغ المبدع الشاب «وعيه» (..) و «رؤيته الفنية» -

ولدراسة المشكل من هذه الزاوية، يبدو مفهوم ومصطلح «التأثير» غير واضح وغير مفيد بالقدر الكافي. وتظهر بقدر أكبر من الوضوح مساوىء الصيغة الثابتة:

« س و ى » تقريبا في كل البحوث حول الأدب المقارن التي قامت حتى يومنا هذا.

إن العمليّات التي سيتعيّن على الأدب المقارن دراستها هي عمليات إبداعيّة وهي أيضا عمليات معقّدة وتحمل معلومات. إن النشاط الأدبي الإبداعي هو سلسلة مغلقة تتكوّن حلقاتها من: «المبدع - الأثر - متلقي الأثر - المبدع».

إن الإبداع الفنّي مرتبط بالإدراك الفنّي وهو مشروط به ويكاد يستحيل تصوّر الأدب المقارن المعاصر بمعزل عن سيكولوجيّة النشاط الإبداعي بأقسامها الثلاثة: سيكولوجية الإدراك الفني، سيكولوجية الإبداع الفنّي، سيكولوجيّة نموّ وتطوّر الفنان- المبدع.

وفي المستقبل القريب، سيقترب الأدب المقارن أكثر فأكثر من علوم جديدة أخرى مثل سوسيولوجيا النشاط الفنيّ الإبداعي، والتاريخ المقارن لمختلف الفنون، والسيميائيّة، والنظريّة العامة للإتصال ولا سيما نظرية وسائل الإعلام الجماهيري، ونظرية الإعلام إلخ -

وفي المستقبل القريب، سيقترب الأدب المقارن أكثر فأكثر من علوم جديدة أخرى مثل سوسيولوجيا النشاط الفنيّ الإبداعي، والتاريخ المقارن لمختلف الفنون، والسيميائيّة، والنظريّة العامة للإتصال ولا سيما نظرية وسائل الإعلام الجماهيري، ونظرية الإعلام إلخ - وهذا يعني في واقع الأمر النفاذ المتزايد للأدب المقارن في دائرة الأنتروبولوجيا الثقافية المعاصرة باعتبارها ميدانا علميًا واسعا مفتوحا على معرفة عصرنا.

الهوامش.

آستخلص هذا البحث من أعمال المؤتمر السابع للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي انعقد سنة 1973.

- الحرفان (س) و (ي) يمكن أن يشيرا إلى كاتب أو بلد أو حضارة أو عمل أدبي ما، أو نص من هذا العمل الأدبي إلخ.. وكمثل على ذلك دراسة حول «شكسبير وفولتير» أو «الغرب والشرق» أو «الأدب الفرنسي والأدب العربي» إلخ.